﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ٩٠ كَذَٰلِكَۖ وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا ٩١ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ٩٢﴾ [الكهف: 90 - 92]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لما قَبْلَها:

قصّةُ ذي القرنيْن سياقٌ متماسكٌ يُفضي بعضُه إلى بعضٍ

مناسبةُ الآيات الكريمات لما قبلها أنّ الله تعالى "لمّا بين أوّلا أنّه - أي ذا القرنيْن - قَصدَ أقربَ الأماكنِ المسكونةِ مِن مغرب الشّمسِ - أتبعَه ببيانِ أنّه قصَدَ أقربَ الأماكن المسكونةِ من مطلعِ الشّمس، فبيّن الله تعالى أنَّ ذا القرنيْن وجد الشّمسَ: ﴿تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا﴾"[1] ... إلخ، وقد وجدَ هنالك أمّةً بدائيّةً، ليس لها بيوتاتٌ تكنُّ أفرادَها، ولا شجرٌ يُظلّلُهم، فكانوا يَتوقّون من حرّ الشّمسِ في سراديبَ في الجبال، ويخرجون ليلًا للارتزاقِ، وصيْدِ ما يأكلون.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾: الأصلُ (طلع) يدلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ، يُقالُ: طَلَعَتِ الشَّمسُ طُلوعًا ومَطْلَعًا[2]، وطَلَعَ القمرُ وغيرُه طُلوعاً فهوَ طالِعٌ، ووقتُ طلوعِه المَطْلَعُ، ومَوْضِعُ طلوعه المَطْلَعُ، ويجوزُ مطلعُ ومطلَعُ فيهما جَميعًا، وكلُّ بادٍ لَك من عُلوٍّ فقد طَلَعَ عليْك[3]، والطِّلاعُ: ما طَلَعَت عليه الشَّمسُ منَ الأرْض[4]، والمقصودُ بمَطلعِ الشَّمس: مكانُ طُلوعِها من جهةِ المَشرِقِ، والمرادُ: بلوغُ ذي القرنيْن مشرقَ الشّمس، وهو نهايةُ ما وصلَ إليه العَمارُ، في ذلك الزّمان.

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 497.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طلع).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (طلع).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (طلع).

2) ﴿سِتْرًا﴾: أَصْلُ السَّتر: التَّغْطِيَةُ، يُقال: سَتَرَ الإِناءَ، أَيْ: غَطّاهُ، وشَيْءٌ مَسْتورٌ، أَيْ: مُغَطًّى غَيْرُ مَكْشوفٍ[1]، والسِّتْرُ والسُّتْرَةُ: ما يُستترُ به[2]، والسِّتارة: ما ستَرَكَ من شمسٍ وغَيرِها[3]، السَّتْرُ: الإِخْفاءُ والإِضْمارُ، يُقال: سَتَرَ الشَّيْءَ، يَسْتُرُهُ، سَتْراً، أَيْ: أَخْفاهُ، وضِدُّهُ: الإِظْهارُ والإِبْرازُ والكَشْفُ[4]، والمُرادُ بالسِّتر في الآية: ما يَستُرُ الجَسَدَ.

3) ﴿أَحَطْنَا﴾: أصلُ (حيط) يدلُّ على شَيءٍ يُطيفُ بالشَّيْءِ[5]، ومنه الحائطُ: الجدارُ الَّذي يَحوطُ بالمكان، والإحاطَةُ تُقال على وجهين: أحدهما: في الأجسام، نحو: أَحَطْتُ بمكانِ كذا، أو تُستَعمَلُ في الحفظ، نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝٥٤﴾ [فصلت: 54]، وتُستعملُ في المنع، نحو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: 66][6]، والإحاطَةُ بالشَّيءِ: الكَوْنُ حَولَهُ كالحائِطِ، ويُكنَّى بها عَنِ التَّمكُّنِ مِنَ الشَّيءِ بحَيْثُ لا يَفوتُ منه[7]، والثّاني: في العِلْم، نحو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ۝١٢﴾ [الطَّلاق: 12][8]، والإحاطةُ بالخَبَرِ هنا، كنايةٌ عن كونِ المعلومِ عظيمًا بحَيثُ لا يُحيطُ به عِلْمًا إلّا علّامُ الغيوب[9].

4) ﴿خُبْرًا﴾: أَصْلُ الخُبْرِ: العِلْمُ بالشَّيءِ، والإخبارُ: الإعلامُ بالشَّيءِ، يُقالُ: خَبَرَ الشَّيءَ يَخْبُرُهُ خَبْرًا أَيْ عَلِمَهُ، ولي بفلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ أَيْ عِلْمٌ ومعرفةٌ، واللّه تعالى الخبيرُ أَيْ العالمُ بكلِّ شَيءٍ، ويُطلَقُ الخَبَرُ على كلِّ ما يُنقَلُ ويُتَحَدَّثُ به[10]، والمقصودُ بالخُبْرِ في الآيةِ: العِلمُ بالأشياءِ المعلومةِ من جهة الخَبَر[11].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

لمّا فرغَ ذو القرنيْن من ترتيب أحوالِ القوم الّذين فوَّضه اللّه تعالى فيهم جهةَ مغربِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ستر).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ستر).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ستر).
(4) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (ستر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوط).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حيط).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 171.
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حيط).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 30.
(10) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خبر).
(11) الراغب، المفردات: (خبر).

الشّمس سلكَ طريقًا إلى مطلع الشّمس، حتّى وصل إلى آخر البلادِ، من جهة مطلعِ الشّمس، ووجد هناك قومًا بُداةً، لا بيوتَ لهم تَقيهم لفْحَ الشّمسِ حين تطلعُ عليهم.. "لم يَرتقوا صناعيًّا، حتّى يَصنعوا لأنفسِهم ثيابًا، تَسترُهم، وتَحميهم من أشعّةِ الشّمس، أَو مساكنَ تُؤويهم من حرارتِها"[1]، "فأرضُهم لا تحملُ البناءَ؛ فإذا طلعتِ الشّمس تغوَّروا في المياه، فإذا غربتْ خرجوا يَتراعون كما ترعَى البهائمُ ... وإذا طلعتِ الشّمسُ دخلوا في أسرابٍ، حتّى إذا زالتِ الشّمسُ خرجوا إلى حروثِهم ومعايشِهم"[2].

ذو القرنيْن عندَ مطلعِ الشّمس يُنبئُ بأنّ وجودَ القائدِ الموفَّقِ يحلُّ المُشكلاتِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآية عن سابقتِها:

فُصل قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾، عن قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾، لما بينهما من شبْه كمالِ الاتّصال؛ أي: الاستئنافِ البيانيِّ؛ لأنّ جملةَ ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا﴾ تثيرُ في الذِّهن سؤالًا، وتشوِّقُه - قطعًا - إلى معرفة التّالي من أحداثِ هذه القصّةِ الفريدةِ في بابِها منَ الجهادِ في سبيل اللّه تعالى وفتحِ البلدان من أقصى المعمورةِ إلى أقصاها.

القَصصُ القرآنيُّ متلاحمُ النّظمِ وثيقُ العُرَى

سرُّ ورودِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في سياقِ الآية الكريمةِ:

﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ "حرفُ غايةٍ"[3]؛ يفصحُ عن غايةِ ذي القرنيْن، في مسيرِه إلى وجهتِه مجاهدًا في سبيل اللّه ﷻ وأنّه لم يكن ليقنعَ بأقلَّ من بلوغِ ذلك المبلغِ، وقد آتاه اللّه تعالى هذه الأسبابَ كلَّها، وتلك همّةٌ عاليةٌ، يمكنُ القولُ بأنّها منقطعةُ النّظيرِ، ولذلك نالَ شرفَ الذّكرِ، والإشادةِ في الذِّكر الحكيمِ.

علوُّ همّةِ القائدِ يأبَى لـه إلّا بلوغَ النّهاياتِ الحميدةِ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 920.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 194.
(3) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ) في السّياق:

القائدُ الجادُّ يُهمُّ بالأعمالِ فيُمضيها على وجهِها الأكملِ

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾، ﴿إِذَا﴾ "ظرفٌ لما يُستقبلُ منَ الزّمن يتضمّنُ معنَى الشّرط"(1)، والتّقييدُ بها هنا يقطعُ بأنّ مدخولَها ﴿بَلَغَ﴾ قد تحقّقَ، وأنّ ذا القرنيْن كان صادقَ العزمِ، جادَّ العزيمةِ على بلوغِ مطلعِ الشّمس، كما كان جادًّا حتى تحقّق له بلوغُ مغربِها، وأنّه قد "سار منَ المغرب نحوَ المشرق، حيث ظَنَّ الشَّمسَ تطلعُ منه، وقيل: حتى لم يبقَ بينَه وبين مطلعِ الشّمس أحدٌ"(2).

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿بَلَغَ﴾ في سياقِ الآية:

القائدُ المُظفَّرُ لا يوقِفُه شيءٌ حتّى يصلَ إلى مُرادِه

قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾، التّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿بَلَغَ﴾، في جملة الشّرطِ يُقرِّرُ تَحقُّقَ الشّرط، وأنّ ذا القرنيْن قد جدّ في الأمر حتّى انتهى فعلًا إلى هذه النّقطة منَ الأرض، وهي الّتي لا مطمحَ في تجاوُزِها لأحدٍ حتّى ذلك الزّمانِ، وممّا يدعمُ هذه الدّلالةَ ويؤازرُها إيثارُ التّقييدِ بأداةِ الشّرط ﴿إِذَا﴾ كما هنا.

سرُّ التّقييدِ بالظَّرفِ ﴿مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾:

هِمّةُ القائدِ المظفَّرِ بلوغُ غاياتِ الكمالِ الأكبرِ

المقصودُ بـ ﴿مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾ هنا "أدنى الأرضِ من مطلعِ الشّمس"(3)، و"جهةُ المشرقِ من سلطانِه ومملكتِه، بلغَ جهةً قاصيةً منَ الشّرق، حيث يَخالَ أن لا عُمرانَ وراءَها، فالمطلعُ مكانُ الطّلوع، والظّاهرُ أنّه بلغَ ساحلَ بحرِ اليابان، في حدود منشوريا أو كوريا شرقًا"(4)، والتّقييدُ بالظّرفِ احتياطٌ من خُطورِ أيّ احتمالٍ بقصورِ هِمَّته دونَ بلوغِ غاياتِ الكمال؛ وأنّ غايتَه الّتي أَمَّها سواءٌ من جهة المغربِ، أوِ المطلعِ لا غايةَ وراءَها لمريدٍ حتّى عصرِه.

(1) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.
(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1299.
(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/ 541.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 28.

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾:

بيانُ أنّ الهمّةَ العاليةَ طموحُها عالٍ

اللّامُ في لفظ ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ للعهدِ الذّهنيِّ؛ أي: ﴿ٱلشَّمۡسِ﴾ المعروفةُ المعهودةُ لديكم يا محمّدُ؛ فالذّكرُ الحكيمُ يوجّهُ أنظارَ الأمّة إلى مطمحِ أهلِ الهممِ في الدّعوة إلى الله تعالى، وفتحِ البلاد وهدايةِ العباد، والأخذِ بحُجَزِهم إلى الله.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿وَجَدَهَا﴾:

التّحقّقُ طريقٌ لتحقيقِ المصلحةِ وسدٌّ للذّريعةِ

التّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿وَجَدَهَا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطۡلُعُ﴾، يقرّرُ أنّ مرادَ ذي القرنيْن قد تحقّقَ فعلًا، بعد أن قصدَ إليه قصْدًا، ومُفادُ المشهدِ أنّ ذا القرنيْن أخذَ طريقًا نحوَ المشرق من جهة الجنوب، حَتَّى إِذا بَلَغَ موضعَ طلوعِ الشّمس من معمورةِ الأرض؛ وجَدَها تَطْلُعُ على قَوْمٍ همُ الزّنجُ، لَم نَجْعَلْ لهم من دونِ الشّمس سِتْرًا منَ اللّباس فهم عُراةٌ أبدًا، فإذا طلعتِ الشّمسُ دخلوا الأسرابَ أوِ البحرَ، فإذا ارتفعَ النّهارُ خرجوا إلى معايشهم"[1]، وكونُه وجدَها تطلعُ على القوم المذكورين، فقد كان طلوعُها ظاهرةً فلكيّةً معتادةً، والقومُ الموجودون في ذلك المكان وجدَهم ذو القرنيْن لأوّل مرّة، فاكتشف حالتَهم وصفاتِهم كما ذُكرت في السّياقِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿تَطۡلُعُ﴾:

تجدّدُ المشاهدِ واستحضارُها بيانٌ لقصصِ السّابقين

في التّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تَطۡلُعُ﴾ استحضارٌ لمشهدِ طلوعِ الشّمس، كأنّ السّامعَ يُبصرُه، وهذا يمنحُ الأسلوبَ حيويّةً وحُضورًا، وإلى ذلك تقولُ المضارعةُ بتَكرارِ طلوعِ الشّمس، وتجدُّدِه يومًا بعد يوم، كما هناك في مضارعة ﴿تَغۡرُبُ﴾.

بلاغةُ الجناسِ الاشتقاقيّ بين ﴿مَطۡلِعَ﴾ و﴿تَطۡلُعُ﴾:

بينَ ﴿مَطۡلِعَ﴾ و﴿تَطۡلُعُ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 1/ 660.

وَجَدَهَا تَطْلُعُ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ حيث تتّفقُ الكلمتان في أصلِهما، وتختلفان في معناهما، فالأولى اسمُ مكانِ الطلّوع، والثّانيةُ الفعلُ المضارعُ منه.

تنوّعُ الصّيغِ الاشتقاقيّةِ مفيدٌ في الدّلالةِ البيانيّةِ

غَرَضُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَوْمٍ﴾:

في تنكيرِ القرآن كلمةَ ﴿قَوْمٍ﴾، ثمّ وصفِهم بجملةِ ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ في الآيات اللاحقة، دليلٌ على أنّ المقصودَ هو التماسُ العِبرة بالإبهام، لا ذكرَ خصوصِ القوم.

سرُّ التّقديمِ على المفعولِ به في الآية:

قوله تعالى: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، وفيه قَدّمَ النّظمُ الكريمُ القيدّيْن ﴿لَّهُم﴾، ﴿مِّن دُونِهَا﴾ على المفعولِ به ﴿سِتْرًا﴾، لتَعَلُّقِ الأمر بشأنِ هؤلاء القوم، لا بشأن السَّترِ الواقي المُفْتَقدِ، وفي التّقديم معنَى القصرِ، أي: أنّهم هم بخاصّةٍ مَن سكنوا قُطْرًا مكشوفًا لأشعّة الشّمس، وهم بخاصّةٍ من لم يجعلِ اللّه تعالى لهم سِترًا.

الإنسانُ هو المقصودُ بالرّعايةِ والعنايةِ، والله مُسخِّرٌ له كوْنَه

معنَى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّن دُونِهَا﴾:

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دُونِهَا﴾ ابتدائيةٌ، فبدايةُ أشعّةِ الشّمس لحظةَ مطلعِها وسطوعِها يكونُ عليهم، وهذا تصويرٌ دقيقٌ لصعوبة وضْعِهم؛ ولا شكّ أنّ ذا القرنيْن لم يدعْهُم دون حلٍّ لمشكلتِهم هذه؛ لأنّه أوتيَ من كلّ شيءٍ سببًا، وحملَ على عاتقِه خدمةَ العبادِ.

بيانُ صعوبةِ حالِ القوم بكوْنِ حالِهم منبئًا عن مقالِهم

سرُّ التّعبيرِ بالظَّرف ﴿دُونِهَا﴾:

لفظُ ﴿دُونِهَا﴾ منَ الدّنوّ، أي: القُرب، وسرُّ التّعبير بالظَّرف ﴿دُونِهَا﴾، هنا تصويرٌ لبداوتِهم وتعرّضِهم الشّديدِ للشّمس، وما يلزمُ من شدّة حرِّها، ولسْعِها ولفحِها إيّاهم.

انتفاءُ السَّترِ منَ الشّمسِ يلزمُ منه شدّةُ الاصطلاءِ بلهيبِها

غرضُ تنكيرِ ﴿سِتْرًا﴾:

في تنكيرِ ﴿سِتْرًا﴾ في: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ تقليلٌ يفيدُ

انعدامَ كلِّ ساترٍ يمكنُ أن يَستترَ به هؤلاء من حرّ الشّمسِ، فلا يوجدُ بينهم وبين الشّمس أيُّ سترٍ حقيرًا كان أو ضعيفًا.

بلاغةُ الكنايةِ في عدمِ جعلِ السّترِ من دونِها:

في جملة ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾، كنايةٌ عن شدّةِ المأساةِ الّتي كان يكابدُها هؤلاء القومُ، وأنّ اللّه تعالى مَنَّ عليهم بمجيءِ ذي القرنيْن إليهم، وبمعالجتِه أحوالَهم، وهي تُفهَمُ بطريق اللّزوم؛ لأنّه قائدٌ استعمله اللّه تعالى في خدمة البلادِ وراحة العبادِ.

القائدُ الجادُّ يَستعملُه اللّه تعالى في خدمة البلادِ والعبادِ

تنوّعُ الموقعِ الإعرابيّ لجملةِ التّشبيه ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ منحَ الأسلوبَ ثراءً دلاليًّا ثرًّا؛ فقالوا: "الكافُ للتّشبيه، والمشبّهُ به شيءٌ تضمّنَه الكلامُ السّابقُ، بلفظِه أو معناه، والكافُ ومجرورها يجوزُ أن يكونَ شِبهَ جملة وقع صفةً لمصدرٍ محذوفٍ، يدلُّ عليه السّياقُ، أي: تشبيهًا مماثلًا لما سمعت"[1].

كافُ التّشبيه إشارةٌ وجيزةٌ إلى ترابطِ المعاني المتُغازرة

ويجوز أن يكون: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ "خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: أمرُ ذي القرنيْن ذلك، والمشارُ إليه – أي المشبّه – ما وُصفَ به قبلُ مِن بلوغ المغربِ والمشرقِ، وما فعلَه، وفائدةُ ذلك تعظيمُه، وتعظيمُ أمره.

أو أمرُه فيهم كأمرِه في أهل المغرب منَ التّخيير والاختيارِ، ويجوزُ أن يكونَ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ لـ ﴿وَجَدَهَا﴾، أي: وجدها تطلعُ وُجدانًا كوُجدانِها تغربُ في عين حمئةٍ.

أو صفةَ مصدرٍ محذوفٍ لـ ﴿نَجْعَل﴾، أي: لم نجعل لهم سترًا جَعْلًا كائنًا كالجَعْل الّذي لكم فيما تفضّلنا به عليكم منَ الألبسة الفاخرةِ، والأبنيةِ العاليةِ، وفيه أنّه لا يتبادرُ إلى الفهمِ، أو صفةَ ﴿سِتْرًا﴾، والمعنَى عليه كسابقِه، وفيه ما فيه.

أو صفةَ ﴿قَوْمٍ﴾ أي: على قوم مثلِ ذلك القبيلِ الّذي تغرب عليه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 28.

الشّمسُ في الكفر، والحكم أو معمول ﴿بَلَغَ﴾ أي: بلغ مغربَها كما بلغ مطلعَها"[1]، وعلى الوجوه كلِّها فقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾، الآية، وجملة ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾، الآية[2].

بلاغةُ التّشبيه في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

تتميمُ القصّةِ وتذييلُها تأكيدٌ لمضمونِها

التّشبيهُ في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تشبيهٌ ثريٌّ الدّلالاتِ على وجازتِه، وهو يفيدُ تعظيمَ الأمر، وفيه إشارةٌ إلى أنّ ما لاقاه ذو القرنيْن معلومٌ للّه تعالى، فهو العليمُ بمعاناتِه ومصابرتِه، وفيه أيضًا إشارةٌ لمّاحَةٌ إلى تعظيم السّببِ الّذي اتّبعه حتّى بلغَ المقصدَ، ممّا يظهرُ جليًّا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ﴾، والإخبارُ بالإحاطة بما حدثَ في المسار، وما يملكُه من أسبابٍ، أظهرُ منَ التّهويل، كما فيه تلميحٌ إلى الخُبْر بحُسن التّلقّي وجودةِ العمل، إحاطةً بحاله وما أنيطَ به من واجباتٍ وأعباءَ، وما يمتلكُه من قدراتٍ وكفاءةٍ، تجعله مُتحمّلًا أثقالَ التّغييرِ والعدل والإصلاحِ، ولا ريبَ أنّ علْمَ ذلك والإحاطةَ به، لا يكونُ إلّا منَ المحيطِ بكلّ شيءٍ علمًا، ويحتملُ اعتبارُه تذييلًا لبعض مشاهدِ القصّةِ، لتأكيدِ أنّ أمرَه في أهل مطلعِ الشّمس، كحالِه في أهل مغربِها[3].

تنوّعُ معنَى الواوِ في قوله: ﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا﴾:

علمُ اللهِ محيطٌ بكلّ شيءٍ لا يعزب عنه شيءٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا﴾ إمّا أن تكون حاليّةً، فـ " الجملة حالٌ منَ الضّمير المرفوعِ في ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ﴾"[4]، ويمكنُ أن تكونَ استئنافيّةً، فيكونُ "استأنف فقال: ﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرٗا﴾، أي: بما عنده

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 358.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 28.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/ 541.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 30.

علْمًا"[1]، أو "هو صلةُ قوله: ﴿قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف: 83]، ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، أي: عن علْمٍ سأتلو عليكم"[2].

وجملةُ: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا﴾ "بيانٌ لشمولِ علْمِ اللّه تعالى بأحوال ذي القرنيْن الظّاهرةِ والباطنةِ، ولأحوال غيرِه، أي: كذلك كان شأنُ ذي القرنيْن، وقد أحطنا إحاطةً تامّةً وعلمنا علمًا لا يَعزُب عنه شيءٌ، بما كان لدى ذي القرنيْن من جنودٍ وقوّةٍ وآلاتٍ ... وغيرِ ذلك من أسباب الملكِ والسّلطانِ"[3].

سرُّ التّعبيرِ بالحرفِ ﴿وَقَدْ﴾ في الآية:

كـلُّ شيء تحت سلطانِ إحاطةِ الـلـه تـعـالى وخُبْرِه

التّعبيرُ بحرفِ التّحقيق ﴿وَقَدْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾، يناسبُ مقتضياتِ التّعبيرِ بالإحاطةِ في: ﴿أَحَطْنَا﴾، وعمقِ الخبرةِ في: ﴿خُبْرًا﴾، ويُؤنِسُ النّفوسَ، ويقرّرُ فيها اليقينَ بهما؛ فإنّه ربّما انحرفَ فهمُ السّامع مُغاليًا في أمر ذي القرنيْن؛ فتجيءُ ﴿وَقَدْ﴾ لتُحَقِّقَ في نفسِه وقوعَ ذي القرنيْن تحت سلطانِ اللّه تعالى، وإحاطتِه بعلمِه وخُبرِه.

دلالةُ التّعبيرِ بجملة ﴿أَحَطْنَا﴾:

الـلـه تـعـالى محيطٌ بكلّ شيءٍ خُبرًا

التّعبيرُ بالإحاطة، في قوله تعالى: ﴿أَحَطْنَا﴾، تعبيرٌ مصوِّرٌ؛ يقيمُ في النّفس صورةَ شيءٍ يحيطُ بأشياءَ، لا يخرجُ عنه منها شيءٌ، ومعناه: "لم يَخْفَ علينا شيءٌ منها"[4]؛ أي: ممّا لدى ذي القرنيْن "منَ الجيوش والعدّةِ"[5] وغيرِهما، ودلالةُ أحاطَ أنسبُ من غيرِها في هذا السّياق، لبيان تميّزِه على أهل كلِّ زمانه في بقاع الأرضِ، بما حباه اللّه.

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 361.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 7/ 207.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/ 572.
(4) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1300.
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 166.

دلالةُ التّعبيرِ بضميرِ التّعظيم في ﴿أَحَطْنَا﴾:

لا يُحيطُ بعلْمِ البواطنِ والظّواهرِ إلّا الله العليمُ القاهرُ

ضميرُ العظمة - (نا) الفاعلين - في قوله تعالى: ﴿أَحَطْنَا﴾ يختصُّ بالمتكلّم هنا ﷻ والتّعبيرُ به مناسبٌ لطبيعة الإحاطةِ الّتي لا تكونُ إلّا لعلّام الغيوبِ ﷻ لأنّ ما لدى قائدٍ عالَميٍّ مثلِ ذي القرنيْن، من ظواهرِ الأمور وبواطنِها، لا يمكنُ أن يحيطَ به إلّا العظيمُ ﷻ.

معنَى الباءِ في ﴿بِمَا لَدَيْهِ﴾:

إحاطةُ الله تعالى خُبْرًا بكلّ شيءٍ، لا يخلو منها زمانٌ ولا مكانٌ

الباء في قوله تعالى: ﴿أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ تفيدُ معنَى التّعديةِ، وكذلك تفيدُ معنَى الإلصاقِ؛ أي: أنّ إحاطةَ علمِ الله تعالى وخُبْرِه مطّلعةٌ على ما عند ذي القرنيْن من إمكاناتٍ، ملتصقةٍ به لا بعيدةٍ عنه، مصاحبةٍ له؛ فلا تنفكُّ عنه، ولا يغيبُ عنه لحظةً من زمانٍ ولا مسحةً من مكانٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿بِمَا﴾ في السّياق:

ملمحُ الإيجازِ واستيعابِ جميعِ أفرادِ المتحدَّثِ عنه

جاءت ﴿بِمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ اسمًا موصولاً في محلّ جرّ بحرف الجرّ[1]، ووجْهُ إيثارِها أنّها عنصرُ إيجازٍ، وضغْطٍ لأفراد المقصودِ تحتها، واستيعابِه فيها؛ فهي تستوعبُ جميعَ "ما عنده من عظمةِ الملك من جندٍ وقوّةٍ وثروةٍ"[2]، والتّعبيرُ بها مناسبٌ، لبيان الإحاطةِ الإلهيّةِ؛ لأنّها أعمُّ الموصولات وأدخلُها في الإبهام.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿خُبْرًا﴾:

فخامةُ المعلومِ يناسبُ إحاطةَ الله بكلّ مجهولٍ ومعلومٍ

تنكيرُ ﴿خُبْرًا﴾ يلفتُ إلى فخامتِه وعظمتِه، لأنّه متعلّقٌ بالله ﷻ فلا بدّ من تفرّدِه وتميُّزِه عمّا يَخبُرُه المخلوقون من أنواع الخبراتِ، فعلْمُه يتعلّقُ" بظواهرِه وخفاياه، والمرادُ أنّ كثرةَ ذلك بلغت مبلغًا لا يُحيطُ به إلّا عِلْمُ اللّطيفِ الخبيرِ"[3]، و﴿خُبْرًا﴾ "نُصِبَ على المصدر؛

(1) الدّعاس، إعراب القرآن: 2/ 231.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 30.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 292.

لأنّ في ﴿أَحَطْنَا﴾ معنَى خَبِرْنا خبرًا"[1]، أي: لم نجعلْ لهم شيئًا يُظلّهُم من سقفٍ ولا لباسٍ[2]، وفي العلمِ والإحاطةِ بالخبر كنايةٌ عن كونِ المعلوم عظيمًا، بحيث لا يحيطُ به علمًا إلّا علّامُ الغيوب[3].

سرُّ العطفِ بحرف ﴿ثُمَّ﴾ في السّياق:

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، وفيه ﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي، وهي تنبئُ بأنّ ذا القرنيْن لم يبرحِ القومَ الّذين وجدَهم في جهة مغربِ الشّمس، حتّى حلّ مشكلاتِهم، وأصلحَ أحوالَهم، وأنّ ذلك استغرقَ وقتًا غيرَ قليل؛ لما في ﴿ثُمَّ﴾ منَ التّراخي الزّمنيِّ.

دلالةُ التّكرارِ في قوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾:

تَكرارُ قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾، يُلِحُّ على أنّ مسيرَ ذي القرنيْن، كان مُتجدّدًا أبدًا، وأنّ ثانيَ أسبابِه غيرُ أوّلِها، وأنّ ثالثَها غيرُ ثانيها، وفي ذلك كنايةٌ عن وفرةِ همّتِه في اكتشافِ بلادٍ جديدةٍ؛ حيث يمرُّ في كلّ طريقٍ، لأوّل مرّةٍ، فيرى ما لم يكن يرى في الطُّرق السّابقةِ؛ فيُصلحُ ما يَلقاه فاسدًا، ويُرتّبُ أحوالَ البلاد الّتي يَكتشفُها حديثًا، كلّما استحدثَ طريقًا.

ذو القرنَيْن عالي الـهِـمّـةِ حسنُ القصدِ مُخلصٌ في دعوتِه

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السِّتْرُ والحِجابُ:

إنّ "الحجابَ هو المانعِ والممنوعُ بهِ، والسّترُ هو المستورُ بهِ، ويجوزُ أن يُقال حجابُ الشَّيء ما قَصدُه سترُه، أَلا ترى أنَّك لا تَقول لمن منع غَيرَه منَ الدُّخول من غير قصْدِ المَنعِ لَهُ: إنَّه حجبه؟ وإنَّما يُقال: حجبَه إذا قصدَ مَنْعَه، ولا تَقول احتَجَبتُ بالبَيْتِ إلّا إذا قصدتَ منعَ غَيرك عَن مشاهدتِك، أَلا ترى أنَّك إذا جَلَست في البَيْت، ولم تقصدْ

لفظُ السّترِ أبلغُ، وهـو لا يـمنَعُ مـنَ الـدُّخـولِ عـلى المـستـورِ، والحجابُ يمنَعُ ذلك

(1) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1300.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 309.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 30.

ذَلِك لم تقل إنَّك قدِ احتججت؟ وفرقٌ آخرُ أَنَّ السّتْرَ لا يمنَعُ منَ الدُّخول على المستورِ والحجابُ يمنَعُ"[1]، والغطاءُ مادّيٌّ محسوسٌ، بينما الحجابُ يحملُ المعنَى الماديَّ والمعنويَّ كليهما، فالمرءُ يسترُ ما يكون من فسادٍ أو تشويه، ويسترُ رأسَه حتّى لا تصيبَه الشّمسُ أو يُبلّلَه المطرُ، وقد يسترُ عنِ النّاس عيوبَه، ويطلبُ منَ اللّه أن يشملَه بسترِه، والحجابُ: اسمُ ما حجبتَ به بين شيئَيْن، وكلُّ شيءٍ منعَ شيئًا فقد حجبَه، كما تحجبُ الأمُّ الإخوةَ عن فريضتِها[2].

الخُبْرُ والعِلْمُ:

"الخُبر: لخِبرَة المعرفةِ ببواطن الأمرِ"[3]، و"الخَبَر هو العلمُ بكُنْه المعلوماتِ على حقائقِها، ففيه معنًى زائدٌ على العلم ... وخبُرت الشَّيْءَ إذا عرفت حَقيقَة خَبره، وأَنا خابر وخبير من قَوْلك: خبرتُ الشَّيْء إذا عَرفتَه؛ مُبالغَةً مثلَ عليم وقديرٍ ثمَّ كثرَ حَتَّى اسْتُعْمل في معرفَة كُنْهِه وحَقيقَته"[4]، و"العِلْمُ: اليَقينُ، يُقالُ: عَلِمَ يَعْلَمُ إذا تَيَقَّنَ، وجاءَ بمَعْنَى المَعْرِفَةِ أَيْضًا"[5].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 288.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 4/ 97.
(3) الراغب، المفردات: (خبر).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 93.
(5) الفيومي، المصباح المنير: (علم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثلاثون،
سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 30 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-27-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 30 : المجلد الثلاثون، سورة الكهف من الآية 37 إلى سورة مريمَ الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-27-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725630 بتاريخ 2024/11/04م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»